

يسمى بالنتائج العلمية . فالخلق العلمى يخفف ما تصادفه من الاتعاب فى الحياة .
وأما النتائج العلمية الشبيهة بالميكانيكيات والغازات الخائقة والورقات الصفراء ،
فليست إلا مسببات لانهطاط المدنية

وعلى أعمالنا الحالية يتوقف مستقبل أحفادنا وما اذا كانوا سوف يعيشون
عيشاً أسعد مما نعيش ، أم أنهم سوف ينقرضون تجمداً وتناحراً ، تاركين الارض
ميراثاً للسود وغيرهم من الأمم الهمجية لينبثوا فوقها دعائم التاريخ للأجيال المقبلة

حسين محمود

جيرولامو سافونارولا

بطل الحرية والواجب فى القرون الوسطى

ولد جيرلامو سافونا رولا فى فرارا سنة ١٤٥٢ واحرق حياً فى فلورنسا
سنة ١٤٩٨ .



عاش سافونا رولا ما عاش
قوى الايمان فى كل المثاليات العليا
سواء أكان مصدرها الدين أم تعاليم
الفلاسفة والحكماء . عاش عيش
النسك ليقوم بواجبه نحو الذى
فطره واسبغ عليه نعمة الحياة .
وحيا حياة القضيلة ليصفى نفسه
من الرذائل وليعطى المثل بنفسه
لمن حوله من أبناء آدم وحواء .
وقضى شهيد الحرية والواجب
ليخرج بالناس من ظلمات الشقاء
والتعاسة الى نعيم الحياه الدنيا
على ما فهمها . ولقد قام فهمه للدنيا

سافونا رولا

على أنها الحرية فالحرية عنده هى الحياة ولا حياة بغير الحرية .

في تلك العصور المظلمة ، عصور العسف والاستبداد ، عصور الفحش والفجور ، عصور الانحلال والفساد ، رفع سافونارولا راية الحرية وقاد جماهير المستبد بهم إلى ساحة الحرية . نادى سافونارولا بالحرية في تلك العصور التي كان مجرد التشدد بلفظ الحرية كاف لان يقع من يلفظ به تحت آلات العذاب ، تحت المخلة والسندان ، ليموت أشنع ميتة أو ليحرق وتذرى مع الريح بقاياها الترابية . فسلام على هذه العظمة . و سلام على هذه الروح . و سلام على الانسانية في أرقى صورها وامجد معانيها ، ممثلة في شخصية سافونارولا الخالد العظيم .

كان أبواه فقيرين ، غير أن أخلاقهما كانت للنبل مثالا . وكانت أمه قوية المراس شديدة البأس ثابتة العقيدة في كل ما تظن أنه أحق . ولقد عول أبواه بداءة على أن يخرجاه طبيبا . غير أن ميوله العقلية كانت تقبل قلة أخرى . وكانت ايطاليا في أواسط القرن الخامس عشر متهالكة على الشهوات مكبة على كبار الأثم والفواحش . وكان الأغنياء أسيادا مستبدين ، كما كان الفقراء تعساء أشقياء ، لاحظ لهم في الحياة إلا الخضوع لذوى الجاه والسلطة والمال .

طمع سافونارولا منذ نعومة أظفاره في أن يخدم الدين ويخدم الانسانية من طريق الدين . وأية قوة في العصور الوسطى كانت اتقذ من قوة الدين اثرا أو أبعد في الجماعات فعلا ؟ لهذا عكف على درس الانجيل وكتابات القديس توماس اكونياس . غير انه لم يلبث على هذا غير قليل حتى اننى نفسه في صراع شديد وجلاد عنيف مع العالم الخاف به . قال

« لا يوجد انسان واحد في هذا الزمان يرغب بمجد في عمل الخير . انه يجب علينا أن نلجأ إلى الاطفال والنساء اللواتي هن من الطبقات الدنيا ، فهناك بقية من التقوى والفضيلة نعثر عليها . ان ذوى الفضيلة مستعبدون ، حتى لقد أصبحنا كالمصريين القدماء الذين حاولوا مرة أن يخضعوا شعب الله للاستعباد والرق »

لذلك عزم سافونارولا على أن يبتعد عن عالم الشر والرذيلة ، وأن يهب نفسه للآخرة وخدمة الدين . ففي الثالثة والعشرين من عمره حزم أمتعته القليلة ومن غير أن يودع أبويه يعم شطر بولونيا ، وقصد توأ إلى دير سان دومينيك وطلب أن ينتظم في سلك الخدم ، فقبل من فوره ، ثم أخذ يعددته لان يصبح كاهنا يعظ الناس ويبشر لهم بالوحي الجديد الذى استمدته من ذلك

الوحي الذي نزل من قبل على قلب عيسى . وبعد ذلك كتب لاييه خطاباً يعرفه
السبب الذي من أجله ترك بيته فقال « ان البواعث التي حملتني على أن ادخل
الخدمة الدينية كثيرة . ولكن أهمها التعاسة المنيخة على العالم ، والفوارق الكائنة
بين بني آدم ، ثم فحشهم وسرقهم وخيلائهم وغرورهم وعبادتهم للاصنام إلى غير
ذلك من مخازيهم الجلى . انى لم احتمل ما انغمس فيه أبناء ايطاليا من شقاوة
وعمى عن الطريق المستقيم . وزاد الى عندما رأيت الرذيلة في كل مكان فاشية ،
بينما الفضيلة تتوارى خزيا . وما من حزن يلم بى في هذه الحياة يضارع حزنى
على مثل هذا . لهذا صليت متضرعاً إلى المسيح عيسى أن ينتشاني من وهددة هذه
الذائل . ولقد كنت اكرر هذه الصلاة دائماً ضارعاً إلى الله أن يظهر لى الطريق
الذى يجب أن اسير فيه . وليس عندى بعد هذا ما أقول ، الا أن امت اليك ،
كرجل قوى العقل والارادة ، أن تهديّ خاطر أُمى ، راجياً أن تباركاني وأن
تغدقا على من مراحمكما قدراً جزيلاً »

لقد كانت المفاسد التي استولت على الكنيسة النصرانية في ذلك العهد كبيرة
بالغة الاثر . فان شراهة بولص الثانى وفساد سكستوس الرابع وجرائم الاسكندر
السادس (بورجيا) قد أوجدت جواً من القلق والشعور بالذلة والصغار في أرض
ايطاليا وبين جدران المدينة الخالدة . ولا مشاحة في أن عصر بابوية الاسكندر
السادس أكثر عصور التاريخ التي مرت على روما فساداً وأشدّها حلكة . لهذا
قال سافونارولا .

« أين الحكماء وأين القديسون ؟ أين حب المعرفة بل أين الحب نفسه ؟ أين
صفاء الازمان الخالية ؟ فيارب الا حطمت تلك الاجنحة التي لا تطير الا لتحيط
باصحابها حيث تكون المفاسد والدنايات ؟ »

أما الحرية فقبرت في ذلك العهد . لأن الامراء الذين حكموا بقية الشعب في
ذلك العصر لم يكن فيهم شيء من نشاط آباءهم ولا من حكمهم . انهم لم يسمعوا لشيء
إلا لحيازة القوة من حيث هي قوة لا تعنى بالحكم ولا اقامة العدل . وكثيراً
مما كان سلوكهم عاملاً على اثارة العزة في نفس محكوميه . حتى أن كثيراً منهم
قد قتلوا عياناً في رابعة النهار . فدوق غيلازو قتل في كنيسة ميلانو . والدوق
نيقولايوس دبست قتل في فرارا والدوق غيليانو دو ميديتشى قتل في كاتدرائية فلورنسا

في هذا الوسط الذي ملئ سفاهة وأسفاظاً نشأ سافونارولا . على أن رئيس الدير الدمومينيكي في بولونيا لم تخف عنه مواهبه العقلية الفائقة . فرفعه منزلة بأن جعله معلماً للمستجدين . ولقد كان يعتقد أن الطاعة أول واجباته ، فأكب على القيام بما عهد إليه بكل ما كان في قلبه من جرارة وإيمان . ومن ثم عهد إليه بأن يكون واعظاً . ولما بلغ من العمر ثلاثين سنة أرسل ليعظ في فرارا مستقط رأسه . غير أن مواعظه لم تصادف هنالك آذاناً صاغية . وهكذا تجد أن أهل الفضل في أوطانهم غرباء . فعاد من ثم إلى الوعظ في بريسيا وفي بافيا وخنوا حيث بدأت تظهر مواهبه الخطابية . وبعد أن أمضى سبع سنوات في الدير الدمومينيكي ببولونيا ، حط رحاله في مدينة فلورنسا ولقد دله الطريق الذي سلكه إلى فلورنسا إلى أرض جديدة . ولم يكن سافونارولا قد ضرب في آفاق جنوب إيطاليا ذلك المضرب من قبل . ولقد فضل أن يتم سياحته ماشياً على قدميه فكان لديه من الوقت ما سمح له بأن يملي ناظره بما حف به مناظر الطبيعة الفاتنة التي مر بها في طريقه ، ثم تسلق جبل لوجانو وهنالك وقف وقفة المترث ناظراً إلى الورا حيث كانت بولونيا ، والمنظر الطبيعي المترامي تحت قدميه والذي كان مقدور أن لا تقع عليه ناظره مرة أخرى . وهبط الجبل مخترقاً تلك الوديان الموحشة واحداً فرداً بلا رفيق ولا صديق ، وأخذ ينتقل من قمة إلى قمة ومن ذروة إلى ذروة حتى بلغ قمة لافيوتا حيث كان على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم فوق سطح البحر ، ثم هبط إلى وادي السيف وعبر جبال الابنين التي تفصل بين وادي السيف ووادي آرنو . وهنالك رأى فلورنسا في عظمتها وأبهتها راقدة تحت قدميه في بطن الوادي . وفي هذه المدينة خلق سافونارولا في السماء ، وفيها اختتم حياته الخالدة بأن استشهد في سبيل الحق الذي اعتقد به ، وعنه دافع دفاع الأبطال .

لما وصل فلورنسا ذهب سافونارولا تَوّاً إلى دير القديس مرقص حيث قبل راهباً .

كان لورنزو الكبير في أوج عظيمته وقوته . وكان قد تخلص من أعدائه بالنفي والسجن أو بالقتل . وكان قد أخضع الشعب آناً بالقوة وآونة أخرى بمبأذله التي كان يعتبرها أعياداً يشترك فيها الشعب ، ومراقصه التي كان يقيمها ، ومقاصفه التي

كان يملأ بها البطون ويسلب بها الارواح ، وأفراحه التي كان يعنى بها عين الجمهور ليرضخ لارادته . وبهذه الطريقة استطاع أن يختلب لب النبلاء ويحوز رضى العامة . وكان الناس قد نسوا كل ما تردى فيه لورنزو من السفاسف والردائل ، لانه كان رافع لواء الادب والمعرفة وحامى ذمار الفن . وتحت هذا العنوان استباح لورنزو لنفسه من الرذائل ما استباح .

يقول فيلارى « لقد كان الفنانون ورجال الأدب والسياسيون والنبلاء والعامة فى عصر لورنزو شرع فى فساد العقل والنفس . لقد جردوا سن الفضائل جملة ، سرّاً وجهرّاً . ولم يقدم مثل أعلى من فضائل الاخلاق . أما الدين فكان قد اتخذ وسيلة لاختضاع الناس للحكومة ، أو أداة للخداع . ولم يكن للناس من ثقة بالحكم المدنى أو الدين أو الآداب أو الفلسفة . حتى الشك نفسه فانه لم يقيم فى عقل من العقول على صورة تتم على الجسد والاعتقاد الثابت . ولم يحتكم فى عقول الناس أو نفوسهم من مبدأ ، اللهم إلا عدم المبالاة بكل شىء رقيقاً كان أم وضيعاً » .

ولم يكديهم سافونارولا أرض فلورنسا حتى شعر بكل ما انتشر فى جوها من الرذائل . فلما بدأ يعظ فى كنيسة القديس لورنزو هاجم بكل ما أوتى من قوة ما رأى حوله من مفاسد فلورنسا . فذم القمار والغش والكذب ، وبدأ يضرب هذه الرذائل بسياط من القولاذ يرسلها لسانه على كل من سمعه من أهل المدينة . فكانت دهشة تحولت إلى امتعاض ثم إلى كراهية . تساءل الناس : من يكون ذلك الراهب الادكن الذى استطاع أن يتكلم بهذا اللسان ضد مفاسد فلورنسا ؟ وكانت فلورنسا مهبط الجمال ومباءة الفتنة ، فكيف يمكن أن يجد سافونارولا لنفسه فيها مكاناً ، وهو ربة القوام حالك الشعر كبير الانف مجعد الجفنين واسع النم غليظ الشفتين ذا كن البشرة ؟ هل يمكن أن يكون لمثل هذا الرجل مكان يشغله فى فلورنسا ؟

وكان لورنزو قد استطاع أن يلجم أفواه الوعاظ وأن يكها بعطاياه وصلاته العديدة فكان الناس يتقاطرون على غير سافونارولا إذا وعظ ، وينثون عن الشهيد اذا تكلم . فاذا أخذ عليه أحد الناس خطته وذكرك له نجاح رفيقه وحبوطه قال « يجب أن تسح خطايبات اللغة الطريق للوعظ الهادى البسيط اذا قام على

أساس من المذاهب الحقّة والمبادئ القيمة »

في أول أغسطس سنة ١٤٩٠ التي وعظا خلب الالباب ونبه كامن النفوس .
وكان اذ ذاك في الثامنة بعد الثلاثين من عمره . وفي السنة التالية أخذ الناس
يتقاطرون لسماع خطبه الوعظية ، حتى استطاع أن يدمغ شعور الناس بطابع
مشاعره التي كان يحس بها فائرة في نواحي نفسه ، ولم يعد بعد ذلك الرجل المهمل
الذي كان يعظ في كنيسة القديس لورنزو ، وهنا أنحى بكل أوتي من قوة
على الرذائل التي تردى الناس في حمائها ، فزاد الناس فيه حباً يوماً بعد يوم ، حتى
لقد أصبح الناس طوع كلفة يتحرك بها لسانه

وفي سنة ١٤٩١ صار رئيساً لدير القديس مرقص . فلزم صفاته الاولى من
الاستقامة والاستقلال في الرأي . وعلى الرغم مما أغدق به لورنزو الكبير من العطايا
الجسام على الدير ، فان سافونارولا مازال يرميه باشنع المطاعن . فلقد كان عالماً
بمقدار ما أفسد لورنزو من أخلاق الناس وما غرس فيهم من رذائله . وكان يعدّه
جلاد الحرية ، بل عدوها الاشد ، ولهذا كان يعتبره أكبر عقبة تصد الشعب عن
السعادة وتحول بين الناس وبين الارتداد إلى الحياة النصرانية الأولى . ومضى
ينجي على القمار بكل شائنة على الرغم من أنه مفيد مادياً للحكومة . ولعن اغراق
النبلاء في الترف والافراط في الفحش والاجرام ، محملاً اياهم تبعه افساد العامة من الشعب
وكان من مبادئ سافونارولا أن الانسان حر الارادة . وأن حرية ارادته
يجب أن تنصرف إلى فعل الخير . قال « ان أرادتنا هي بحكم طبيعتها الاصلية حرة
تماماً . أما تحقيق هذه الحرية فلا يكون إلا مع الحرية العملية » . وكان يؤمن بأن الله
يعون للناس . ولكنه مع هذا يحب الذين يعينون أنفسهم على الخير . وكان يقول
« صلوا بقلوبكم . ولكن لا تهملوا مع ذلك مطالب الحياة الانسانية . يجب
عليكم أن تساعدوا أنفسكم بكل الطرق والوسائل الممكنة ، هنالك يكون الله
معكم . كونوا شجعاناً أيها الاصدقاء ، واتحدوا قبل كل شيء » . وكان يقول
دائماً . « بالصدق يلزم الانسان عادة يعبر بها قولاً وفعلاً عن حقيقة نفسه كما هي ،
والصدق ان لم يكن قانوناً ، الا أنه واجب أدبي . لانه دين في عنق كل
الانسان يؤديه إلى من يمتك بهم في الحياة ، كما أن اظهار الحق جزء لا يتجزأ
من اقامة العدل » .

بعد زمان انتقل لورنزو الكبير من فلورنسا إلى قصر كوريجي ليقضى أيامه الأخيرة . وكان انتقاله في أوائل شهر ابريل حيث تبسم الطبيعة وتفرد أطيافها المرحية فوق أغصانها المخضوضرة الرطبة . ويقع ذلك القصر في متوسط وادي أرنو على بعد ثلاثة أميال إلى الشمال الشرقى من فلورنسا . ومن نوافذه يقع بصرك على الدومو والكامبانيل ، وقباب كثير من الكنائس ، التى تعلو بها هماماتها المشمخة على الاشجار الباسقة . وإلى شمالى ذلك القصر تقع مرتفعات فيزول ، وعلى مسافة منها تبدو تخاطيط تلال توسكانيا كالأخيلة المتراوحة عند تنفس الفجر من وراء الافق السحيق .

كل ذلك الجمال الذى أحاط بلورنزو لم يكن كاف لان يبعد عنه ألم المرض واحتضار الموت . ولقد استعين عليه بكل العقاقير . وقطرت لورنزو كل أنواع المقطرات التى سحقت فيها الجواهر النادرة . فلم ينفذ فيه جوهر ولم ينعمه دواء . ولما أن أعيته حيل الارض ألوى بعينه إلى السماء ، فلجأ إلى الدين . وكانت أشباح الخطيئات التى ارتكبها تتجسم فى عينه كلما اقترب من الموت خطوة . ولم تهد كل الخدمات الدينية التى اقيمت من أجله فى اقرار نفسه حيث تقرر النفوس المطمئنة . فلقد كانت ثقته قد عدت بكل النوع الانسانى . لان كل انسان كان مطواعا لارادة لورنزو خاضعاً لها . ولم تكن له ثقة بمن اعترف لهم . كان يشكو عائلاً « لم يجرأ احد منهم على أن يتفوه امامى مرة واحدة بكلمة لا » وهنا بدأ يفكر فى سافونارولا . فان ذلك الرجل لم يخضع يوماً لتهديداته ولم يقنع رأسه ساعة واحدة أمام عظمتة . وما وصل الخبر الى سافونارولا بتفاقم حالة لورنزو وأنه فى احتياج اليه ، حتى سارع اليه فى قصر كوريجي .

ولقد روى الاستاذ فيلارى حقيقة الحديث الذى دار بين لورنزو وسافونارولا قال « لم يكذب ينادى بيكو دلا ميراندولا » *pico della Mirandola* الحجرة حتى دخلها سافونارولا ، وتقدم باحترام إلى فراش لورنزو المحتضر الذى بدأ الحديث بقوله أن لديه ثلاث خطايا يريد أن يعترف له بها ، ومن أجلها يطلب الغفران . أولاً نهب مدينة فولتيرا واستباحتها والثانية الاموال التى أخذها من مونت دل فانسيولا *Monte della Fanciolla* التى تسبب عنها كثير من القتل وازهاق الارواح . والثالثة الدماء التى أرهقت بعد مؤامرة بازي *Pazzi* .

وكان سافونارولا أثناء اعترافه يكرر له ذكر « إن الله غفور . إن الله رحيم » . ولم يكذب يثم لورنزو كلامه حتى بدأ سافونارولا يتكلم فقال : « مطلوب منك ثلاثة أشياء » -- أجابه لورنزو -- « وما هي يا أبت ؟ » وهنا تقطع جبين سافونارولا ومرت عليه مسحة من الحزن العميق ، ثم رفع أصابع يده اليمنى وبدأ الكلام فقال : « أولاً -- يجب أن يكون إيمانك برحمة الله كاملاً وثيقاً » . لورنزو « ذلك ما يملأ نفسي » . سافونارولا : « ثانياً -- يجب أن ترد كل ما أخذت بغير حق ، أو تلزم ولدك أن يردك عنك » . ولقد ظهر أن هذا الطلب قد أدهش لورنزو وسبب له حزناً بالغاً ، ولكنه بعد لأي قبل تنفيذه بأن هز رأسه بالإيجاب . وهنا قام سافونارولا وامتشق قامته ، وبينما كان الأمير المحتضر يهتز فزعاً ويرتعد خوفاً ورهبة فوق فراش موته . قال له سافونارولا . « وأخيراً يجب عليك أن ترد على أهل فلورنسا حريتهم المسلوبة » . ولقد كان هادئاً ، ولكن صوته كان مزعجاً خفيفاً ، وكانت عيناه ، وكأنما أرادت أن تشتت الجواب ، مركزتين على عيني لورنزو الذي استجمع إذ ذاك كل ما تبقى لديه من قوة ، وأدار إليه ظهره من غير أن ينبس ببنت شفة . وعلى هذا تركه سافونارولا من غير أن يجبه الغفران . أما لورنزو فإن لدع ضميره كان قويا مضنياً ، حتى أنه قضى بعد قليل وخلف لورنزو ابنه بييرو Piero وكان مفسداً مسفا كل اسفاف . فانحط بكل ما فيه من قوة الشباب على المفاسق والفحش ، ولم يعطف أقل عطف على الفنون ولا الآداب . ومضى سافونارولا يعظ كما كان يعظ من قبل . ولقد استطاع بييرو أن يبعده عن فلورنسا زماناً ما ، فرحل الى بيزا وجنوا ولكنه عاد مرة ثانية إلى فلورنسا وناء بكل ما أوتي من قوة على المستبدين . ولما اضطربت أحواله وقعت به المصاعب فكر في الارتحال للتبشير بالدين المسيحي في أقطار نائية ، ولكن العامة في هذا الوقت كانوا قد عرفوا فضائله وأيقنوا بأنه رسول الحرية والسلام فمنعوه عنوة عن الارتحال ، وكانوا يتقاطرون إلى حيث يقطن كالسيل الجارف . كان بييرو في ذلك الوقت قد عقد حلفاً مع البابا في روما ومع ملك نابولي ليستطيع بهذا الحلف أن يقبض على خناق فلورنسا وأهلها بيد من حديد . ولكنه سرعان ما نقض الحلف عندما علم أن فرنسا قد غزت إيطاليا . فان لودفيكو المغربي كان قد اغتصب حكومة ميلانو وأهاب بملك فرنسا شارل الثامن أن يغزو إيطاليا ،

وأن يبدأ بغزو مملكة نابولي . فعبر جيش فرنسي الحدود ، وسار إلى الجنوب . وأخذ ينهب حتى المدن ويستبيحها ، مذلاً بالعنف والقسوة كل عقبة اعترضت سبيله . وهنا خطر لبييرو أن يذهب لمقابلة شارل الثامن ملك فرنسا وأن يعقد معه صلحاً . وكان من نتيجة ذلك أن سلم بييرو إلى ملك فرنسا قلعة سارزانا Sarzana الشهيرة وثلاث مدن هي بيطراسانتا وبيزا ولحورن .

كانت مفاسد بييرو سبباً في أن يبغضه أهل فلورنسا ويحتقروه من صميم قلوبهم . فقد أنكروا عليه أن يدخل سراي الحكم ، بل إن حياته كانت في خطر حتى لقد اضطر إلى أن يلجأ إلى البندقية تاركاً فلورنسا على أبواب ثورة طاحنة . وهنا اختلفت وجهات النظر فكان اتباع أسرة مدتيشي يطلبون ملكاً وأهل فلورنسا ينادون بالجمهورية . وحمل كل من الحزبين سلاحه ووضع كل فرد يده على حنجرة أخيه . وكان سافونارولا هو رجل الساعة الذي تشرّب إليه الاعناق وتمتد له الأيدي تطلب العون والمساعدة . فدعى رجال الحزبين للاجتماع في « الدومو » وعمل على أن يوفق بينهما ويقرب بين مراميهما . وفي الوقت ذاته دعى الناس إلى التوبة والاتحاد والتصدق على الفقراء وإلى الثبات على الإيمان . ولم يكد ينتهي سافونارولا من خطابه حتى كانت الثورة قد هدأت نيرانها وتفشعت غياهاها الثقيلة .

واتجهت الفكرة إلى إرسال وفد من الشعراء إلى ملك فرنسا في معسكره . وكان من بينهم سافونارولا . ذهب بقية أعضاء الوفد يمتطون العربات الفخمة التي تجرها الجياد المطهمة . أما سافونارولا فذهب ماشياً على قدميه . وبينما كان الوفد عائداً من معسكر فرنسا يحمل ثمار الخيبة والفشل التقى بسافونارولا ماشياً على قدميه ليقابل ملك فرنسا وليطلب منه أن لا ينتهك حرمة فلورنسا وأن لا يستبيح حتى أهلها رجالاً ونساء . ولكن لم يجد قوله فتيلة .

وبعد قليل دخل جيش فرنسا المدينة بلا مقاومة وأخذ ينهب قصر مدتيشي واشترك معه في النهب أهل فلورنسا فلم تمض سوياعات قليلة حتى كانت التحف التي استجمعت من ذلك القصر التاريخي خلال نصف قرن من الزمان قد حطمت أو أحرقت أو نهبها ذوو الطمع ومحبو المال .

ولما يم الجيش الفرنسي شطر الجنوب تركت فلورنسا بغير حاكم . واختفى

أنصار أسرة مدتيش كما لو كانوا قد ابتلعهم الأرض أو رفعوا إلى السماء . ولم يبق في فلورنسا من رجل يستطيع أن ينفذ ارادة الشعب الفلورنسي سوى سافونارولا . فعقد مجلساً ذهب فيه إلى تكوين حكومة على نسق حكومة البندقية قائلاً : « انه النسق الأوحى الذى دلت التجارب على صلاحيته » . وبعد مناقشات طويلة استقر رأى على تنفيذ فكرة سافونارولا ، ولم تكد تكون الحكومة حتى رجع الرجل إلى مواعظه الدينية منقطعاً عن زخرف الدنيا غارقاً فى طيات نفسه متوجهاً بكليته إلى الله . غير أنه بدأ يدعو إلى الإصلاح . إلى إصلاح الحكومة وإصلاح الكنيسة وإصلاح الاخلاق . وبدأ يبشر للناس بفكرة الحرية . حتى لقد قال : « إن الحرية بمعناها الحقيقى تنحصر فى تعليم الناس على أن يحيا حياة طيبة كلها خير وسعادة . وأى ضرب من ضروب الحرية ذاك الذى يخضعنا لاستبداد فرد لا قانون له سوى الشهوات والاغراض ؟ والآن . هل تريدون يا أهل فلورنسا أن تنعموا بالحرية ؟ هل تريدون أن تكونوا أحراراً ؟ إذن يجب عليكم قبل كل شىء أن تحبوا الله من قلوبكم وتحبوا جيرانكم وتحبوا بعضكم بعضاً . أما اذا غرستم فى قلوبكم هذا الحب واتحدتم فهناك تستطيعون أن تنعموا بالحرية الصحيحة . »

ولقد عملت الجمهورية التى أسسها سافونارولا فى فلورنسا على إقامة العدل وتخفيض الضرائب وإلغاء التعامل بالربا . فقد كان مالىو اليهود يقرضون الناس بربا قد يتجاوز الثلاثين فى المائة ، وعلى الأخص لأصحاب الاعمال الصغيرة والعمال ووضع نظاماً للرهون ليحمى مصالح الفقراء وذوى الحاجة من الصناع . ولقد سمحت الجمهورية لأقرباء دانتي الشاعر المشهور أن يعودوا من المنفى إلى مدينتهم الأصلية ، وكان الشاعر الخالد إذ ذاك فى أشد حالات الفقر والتعاسة .

تبدلت فلورنسا من مدينة الخلاعة والفسق والفجور إلى مدينة كلها التقوى والصلاح . نخلع النساء حليهن ولبسن أبسط الملابس وأكب العمال والتجار على قراءة الانجيل والتوراة فى ساعات الفراغ أو أخذوا يدرسون كتب الأدب والتاريخ . وكانت الكنائس تكتظ بالمصلين الذين أرادوا أن ينسبوا إلى الله زلفى . أما أغرب ما وقع فى ذلك العصر أن المرايين كانوا يردون إلى الدين يعاملونهم بمقادير من الاموال كانت دخلت إلى خزائهم بفاحش الربا عملاً بتعاليم الرسول الجديد كل هذا فعله سافونارولا بمفرده بلا عضد أو نصير .

بلغ سافونارولا في سنة ١٤٩٥ أقصى مبلغ من الضعف عقلياً وجسمانياً .
فانه كان يعيش عيش الزهادة والفقر . وكان قائماً على الصلاة عاكفاً على الصيام .
وكان ينام على فراش من الخشب عليه غطاء بسيط وكان منظر حجرته ينم على الزهد
لبساطة أثاثها وحقائبها .

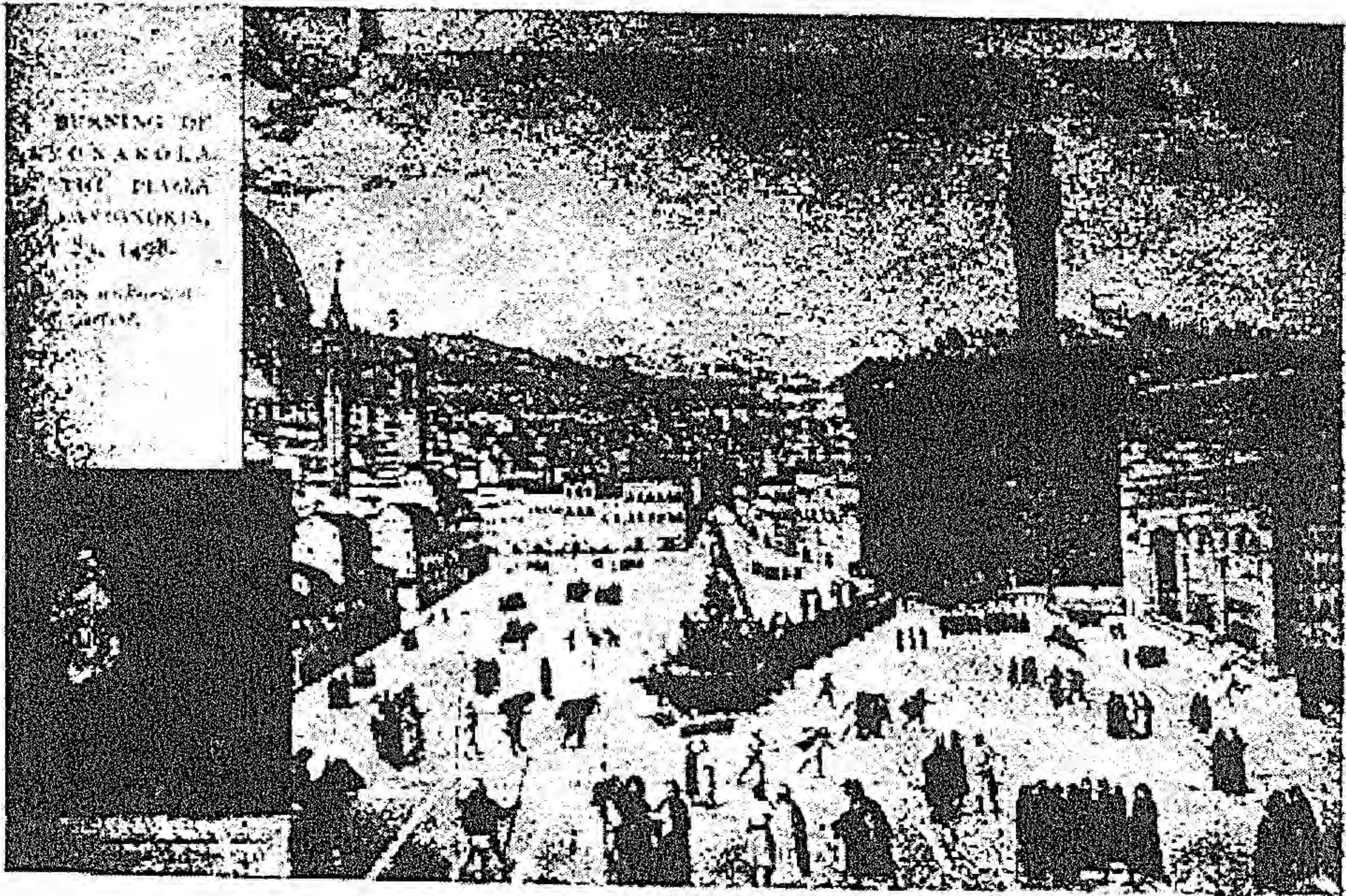
لم يكن هذا الجهد البالغ لينيل سافونارولا في نظر المستبدين شرفاً ولا محبوباً
مجدداً . فان عدداً من المؤتمرين به أنصار مدتيش قد حاولوا اغتياله في ذلك الحين
ظانين أن موته كاف لعودة الحكم اليهم وإلغاء الجمهورية . فاحاط به فئة من ضمنهم
يحملون السلاح وأرغموه وهم يحيطون به على أن يغادر الدومو الى دير القديس
مرقص . وهنا أرسل البابا اسكندر السادس (بورجيا المجرم) أمراً بأن يكف سافونارولا
عن إلقاء مواعظه لانه يبشر فيها بمبادئ فاسدة . وبينما كان المصلح الكبير شبه
سجين مقصياً به عن منبر الخطابة والوعظ كان أنصار مدتيش يذيعون في المدينة
كل موبقة ليزينوا للناس الغواية والفساد تنفيذاً لأغراضهم . غير أن أبلغ رد
ردت به مدينة فلورنسا على هؤلاء أن أولاد الذين هدام سافونارولا الى الطريق
الاصوب خرجوا من المدينة متظاهرين يجمعون الصدقات من الناس ليساعدوا
بها نبيهم الفقير الجائع المأسور بين جدران الدير الموحش .

وخشى البابا سوء العاقبة . فأنهى أمره الاول وسمح لسافونارولا أن يعظ
ثانية . بل صرح بانه يجعل سافونارولا كاردينالاً لو أنه رجع عن أسلوبه الخطابي
الذي كان يلقي به مواعظه . وعرض الامر على البطل الجائع فرفضه بكل اباء ، قائلاً
في موعظته التي ألقاها بين جدران « الدومو » ضبيحة اليوم الثاني .

« اني لا أطمع في القبة الحمراء ولا في كساء الكردانة أني لا أطمع في شيء
اللهم الا تلك النعمة التي أنعم بها الله على القديسين . نعمت الموت . ولو كنت قد
طمعت في الجاه الدنيوى ، فكلكم يعلم حق العلم اني لم أكن أقف بينكم اليوم
بعباءة يكاد نصف جسمي يظهر من خلالها . وانى لعل استعداد لان أضحي
حياتي في سبيل واجبي » .

ونزلت بفلورنسا النوازل واجتاحها الكوارث . ففي خلال الزمان الذي
حوصرت فيه مدينة بيزا اشتد باهلها الفقر والجوع حتى كنت ترى فقراء الناس
على جوانب الطرق وقد أخذهم الموت عرباً وجوعاً . وتفشى في المدينة الطاعون

وأخذ يختطف الارواح ويحصد النفوس حصداً . وهنا بدأ سافونارولا يقوم بواجبه . فكان يرسل المرضى الى خارج المدينة ، وبقى هو وأتباعه داخل الاسوار الموبوءة لا يتأخر لحظة واحدة عن أن يلج الدور التي غزا أهلها الوباء ليقوم للمحتضرين بأخر الفروض الدينية . ولم يمض شهر حتى كان الطاعون قد هدأت نوبته ، لتحج مرة أخرى مؤامرات أنصار مدينتشى ضد الجمهورية .



احراق سافونارولا حيا
عن صورة قديمة لفنان غير معروف

وبقى سافونارولا جاثماً بين جدران ديريه وقد بدأ في طبع كتابه المسمى « انتصار الصليب » . وفي هذا الكتاب بث مذهبه الدينى الذى قال فيه بأن النصرانية تقوم على ثلاثة أشياء : العقل ، والحب ، وحرية الضمير . وكان هذا الكتاب بمثابة رد على بلاغات البابا وأوامره ، وبدأ يدرس في المعاهد باجازه من مجمع الفهرست الرومانى . وعلى الرغم من هذا فان البابا (بورجيا الاثم) قد أصدر أمره بفصل سافونارولا عن الكنيسة فى سنة ١٤٩٧ . ومنع الامر البابوى كل أحد من أن يتصل به أو يساعده باعتباره هرطوقا خارجاً على الكنيسة مفصولاً عنها . واجتمع فى الكاتدرائية جمع غفير من رجال الدين وعلى رأسهم الاساقفة من مختلف الجهات وقرئ عليهم أمر البابا . وبعد أن قرئ أطفأت الانوار فجأة وترك كل شيء من الكلام حيث خيم سكون عميق كسكون القبور .

وَأُلْقِيَ سَافُونَارُولَا آخِرَ مَوَاعِظِهِ فِي ١٨ مَارِسَ سَنَةِ ١٤٩٨ بَعْدَ أَنْ طَلَبَ
 الْبَابَا أَنْ يُرْسَلَ إِلَيْهِ الْهَرَطُوقُ وَبَعْدَ أَنْ رَفَضَتْ فُلُورِنْسَا أَنْ تُرْسَلَ بِهِ إِلَيْهِ . وَحَتَّى
 هَذَا الْحَيْنَ كَانَ سَافُونَارُولَا أَكْثَرَ النَّاسِ فِي فُلُورِنْسَا شَهْرَةً وَأَحْبَبَهُمْ لِقُلُوبِ النَّاسِ
 وَأَثْبَتَهُمْ عَلَى الْهَدَايَةِ عَزِيمَةً وَأَكْثَرَهُمْ عَلَى التَّقْوَى حُضًا . غَيْرَ أَنَّكَ لَا تَعْرِفُ كَيْفَ
 تَعْمَلُ الْأَسْبَابَ الَّتِي تَكْمُنُ وَرَاءَ الثُّورَاتِ الْفَجَائِيَّةِ أَوْ تَحْتَبِئُ وَرَاءَ الظُّوَاهِرِ الْنَفْسَانِيَّةِ
 فِي الْأَفْرَادِ وَالْجُمَاعَاتِ . فَإِنَّ سَافُونَارُولَا الَّذِي كَانَ نَبِيَّ فُلُورِنْسَا بِالْأَمْسِ ، قَدْ أَصْبَحَ
 بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَغَدَاةٍ ذَلِكَ الْخُدَاعُ الْمَاكِرَ الَّذِي فِيهِ مِنْ قُوَّةِ السَّحَرِ مَا يَخْضَعُ الْجُمَاهِيرُ
 زُورًا !!! وَذَابَ إِذْ ذَاكَ أَنْصَارُهُ وَفَنُوا كَمَا تَذُوبُ أَكْوَامُ الْمَلْحِ يَطْمُو عَلَيْهَا
 مَدَّ الْبَحْرِ الْخَضَمِ .

قَبِضَ عَلَيْهِ وَزَجَّ بِهِ فِي أَعْمَاقِ السَّجْنِ وَعَذِبَ مَرَاتٍ ثَلَاثَ . فَنِي يَوْمَ ١٥
 مَآيُو سَنَةِ ١٤٩٨ وَصَلَ إِلَيْهِ مَسْدُوبُ الْبَابَا وَأَوْقَعَهُ تَحْتَ عَذَابِ الْآلَاتِ الْجَهَنَّمِيَّةِ ،
 وَأَخَذَهُ الْبَحْرَانِ فَكَانَ يَجِيبُ أَجُوبَةً مُتَنَاقِضَةً وَيَهْذُو ، لِأَنَّهُ ضَعُفَ جِسْمُهُ وَهَزَالَ
 كَانَ قَدْ بَلَغَ بِهِ أَقْصَى مَبْلَغٍ مِنَ النُّحُولِ . فَاتَّخَذَتْ أَجُوبَتُهُ تِلْكَ دَلِيلًا عَلَى هَرَطَقَتِهِ
 وَخُرُوجِهِ عَلَى الْكَنِيسَةِ .

وَعَقَدَ مَسْدُوبُ الْبَابَا اجْتِمَاعًا فِي ٢٢ مَآيُو سَنَةِ ١٤٩٨ وَأُصْدِرُوا عَلَيْهِ حُكْمَ الْمَوْتِ
 هُوَ وَاثْنَيْنِ مِنْ أَنْصَارِهِ هُمَا دُومِينِيكُو وَنِيكُولِينِي وَكَانَ نَصُ الْحُكْمِ أَنْ يَقَعَ الْمَوْتُ
 بِلَا أَرَاقَةَ قَطْرَةٍ مِنَ الدَّمَاءِ ، شَفَقَةً وَرَفَقَةً بِهِمْ وَكَانَ مَعْنَى هَذَا أَنْ يُحْرَقُوا أَحْيَاءً .
 وَلَقَدْ قَابَلَ سَافُونَارُولَا وَرَفِيقَاهُ الْمَوْتَ بِشَجَاعَةٍ نَادِرَةٍ الْمَثَالِ . فَنِي يَوْمَ ٢٣
 مَآيُو سَنَةِ ١٤٩٨ قَضِيَ ذَلِكَ الرَّجُلُ الْعَظِيمُ وَصَاحِبُهَا شَهْدَاءَ فِي سَبِيلِ الْحُرِّيَّةِ وَحَدَّهَا
 وَبَعْدَ أَنْ أَكْتَبَهُمُ الزَّيْرَانُ سَحَقَتْ بِقَايَاهُمُ التَّرَابِيَّةُ وَذَرِيَتْ مِنْ فَوْقِ جِسْرِ فِكْشِيو
 حَيْثُ حَمَلَتْهَا الرِّيحُ إِلَى مِيَاهِ « الْأَرْنُو » الْمَتَدَفِّقَةِ وَلَمْ ، يَكُنْ لِسَافُونَارُولَا مِنَ الْعُمُرِ
 إِلَّا خَمْسَةٌ وَأَرْبَعُونَ عَامًا قَضَاهَا فِي الدِّفَاعِ عَمَّا يَمْتَقِدُ أَنَّهُ حَقٌّ ، خَاضِعًا أَبَدًا لِمَا كَانَ
 يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِ فِي الْحَيَاةِ .

فِيلُوزُوف